

الذكر المولي لمرتين الى الشرق



لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ - نيسان ١٨٣٣

بقلم اغناطيوس سركيس ق.ب.

٤

في الارز الخالد

لم يبقَ على لامرتين ، لتتم سياحته ، الا ان يزور لبنان الشالي ويتمع انظاره
برؤية الارز الخالد «ارز الرب في لبنان» .
ففي ١٣ نيسان ، اذ رأى ان المركب (L'Alceste) لم يصل بعد من فرنسا ،
استفاد من هذه الفرصة وسار بقافلاته المتتادة ، ليقوم بهذه السفرة الاخيرة في
« وطن مخيلته » . فر في جيل ، وفام ليلة في طرابلس . وفي الغد ، سار الى
اهدن يصحبه شيخها وابنه وخياله الذين جاوزوا لاستقباله ومراقبته في الطريق .
وبعد ان قطعوا طرق كسروان الوعة وقادروا في مهابها اخطاراً لم يتعودوها ،
وصلوا في الما . الى اهدن حيث كان منزل الشيخ ، الممدد لاستقبالهم ، قد غص
باهل البلد ، الآتين للترحيب بالضيف الفرنسي . فاقاموا على اكرامه ليلة انس
وفرح . ولما اصبحوا ارسل الشيخ رواداً يتفقدون طريق الارز . فكان
جوابهم ان الثلوج متراكمة فيها على علو انني ، مشر قدماً . فاحزن ذلك لامرتين
كثيراً ولكنه ترك حاشيته ، وركب احد امصته القوية تصحبه بعض الحيلة
اللبنانية ، ليلقي على الارز نظرة ولو من بعيد . فسار فوق الثلوج حتى اصبح
من الارز على مئة ذراع . وهناك اذ لم يعد يمكنه التقدم ، جلس يتأمل تلك
الاشجار الجبال ، التي غابت الزمان فقلبت ، وهظلت تلجأ على مفرق لبنان ...

لا ترى في اقمها غير البحر والسماء^١ . ولكنه يأسف لان الارزات التاريخية لا تزال في تناقص . فقد عدّ السياح اربعين ارزة بدل حجمها على انها ترتقي الى العصور القديمة ؛ ثم اصبحت هذه الارزات ثلاثين ؛ ثم سبع عشرة ، ولم يبق منها الا سبع^٢ .

ارزة لامرتين

اما « اللوحة التذكارية » التي نراها اليوم على الارزة المعروفة « بارزة لامرتين » . فقد « وضعتها جمعية الشبيبة البشراوية تذكراً لمرور الشاعر الفرنسي العظيم دي لامرتين مع ابنته جوليا في ارز لبنان سنة ١٨٣٢ ، مهدية اليه الارزة التي حفر عليها اسمه واسم ابنته . تخليداً لذكره المجيد في ٢٧/١٠/٢٧^٣ » ولكن لا لامرتين ولا جوليا دخلا الارز . اما هو فتمتعه التلوج عن بلوغه كما رأينا ؛ راما هي فتوفيت ولم تخرج من بيروت . فجسمية الشبيبة البشراوية اعتمدت فيما يظهر على الكلمات المكتوبة على الارزة ذاتها وهي :

De Lamarti... : دي لامرتي

JULIA : جوليا

Geramb. : جيرامب

†

وقد اختلف الكتاب في معرفة من حفر هذه الكلمات ، وذهبوا في تأويلها مذاهب شتى . لذلك لا بد من كلمة جلية في هذا الموضوع ، ولو طال بنا المقال اكثر مما يسمح المقام .

قال البعض ان لامرتين بكلف احد اصحابه بذلك . وقال آخرون ان كاهناً

(١) الرحلة ٢ : ١٢٠

(٢) الرحلة ٢ : ١٢٨ - لم يذكر لامرتين من هم هؤلاء السياح الذين اخذ عنهم هذه المعلومات .

(٣) الكلمات التي بين متنفذين هي نص اللوحة اذا ما مترجماً عن الافرنسية .

افرنجياً من اصحاب الشاعر ، اسمه جيراب صمد الى الارز قبل لامرتين وحفر فيه اسمه واسمي صديقه وابنته . وقال غيرهم : بل ان دي پرسفال (de Perseval) رفيق لامرتين هو حافر الاسماء . وكل هذه التأويلات بعيد عن الصواب ؛ اذ لو كان من ذلك شيء . لدونته لامرتين في مذكراته ، وهو الحريص على كل ما يتعلّق بذكر ابنته .

ولقد كان من حظ هنري بوردر ، الكاتب الفرنسي المعروف ، ان يقترب من الحقيقة بخطى واسعة . قال في محاضراته : (*Lamartine en Orient*) ما محضه : لعل لامرتين ، بعد رجوعه الى بيروت ، اعرب عن اسفه لعدم بلوغه الارز ، واتمام رغبته في ان يخلد عليه اسم جوليا . فقد يكون اذن ان احد اصدقائه اللبنانيين سمع ذلك منه ؛ واذا تيسر له الصعود الى الارز ، اتم رغبة صديقه ، وفي ظني ان ذلك اكثر روعة مما لو كان لامرتين هو حافر الاسم بذاته . وهذا التأويل يشرح لنا اللغز بكامله ؛ فيكون معنى الجملّة : « جوليا دي لامرتين (De Lamartine . . . JULIA) ، على طريقة القلب اللاتينية) ، المتوفاة († : علامة الموت التي توضع في التواريخ بعد اسماء المتوفين) في شهر كانون الاول (Geramb : تحريف لقطة Decembre : ديسمبر) »^{١)}

هذا ما كتبه بوردر سنة ١٩٢٣ .

ولكن « سر الارزة » انكشف له في ما بعد ، فاوضحه في مجموعته « رحالة الشرق » (*Voyageurs d'Orient*) التي نشرها سنة ١٩٢٦ .

وخلاصة الامر ان راهباً افرنجياً ، اسمه الاب جيراب ، لا يخلو من الغرابة في بعض طباعه ، كان سائحاً في لبنان سنة ١٨٣٢ ، فتعرف الى عائلة لامرتين . ولما كان كل غريب للغريب نسياً ، لا سيما اذا كانا من وطن واحد ، اخذ الاب جيراب يتردد الى بيت لامرتين في بيروت ، كلما سحّت له الفرص ، ليتسلّى بمحادثة ابنا . بلاده ، وليلي ربة البيت وابنتها الصغيرة في غياب صديقه الشاعر .

وبلغ من احبائه بلطف جوليا ونباهاتها ورقة اخلاقها ، انه اخذ على نفسه ، اذا زار الارز ، ليحفرنَّ على اعظم لمشجاره اسم « جوليا وايها الى جانب اسمه » وقد برَّ بوعده . وما كان شهر ايلول من السنة نفسها حتى صعد الى اهدن ، فالارز ، وحفر على احدى شجراته العبارة التي نحن في شأنها : دي لامرتين . جوليا . جيرامب † (والصليب هو شامه في الرهينة) .

ولم يرد ان يجبر لامرتين بذلك قصد ان يفاجئه بهذا التذكار الودي اللطيف ، منعما يصعد بدوره الى الارز . لكن لم يتسنَّ للامرتين ان يتستغ بعاطفة هذا الراهب الودية ، لانه لم يصل الى الارز كما رأينا . ولذا نواه لا يشير الى شي . من ذلك في كتاب « الرحلة » .

ومضت السنون ، حاملة في طياتها سرَّ ارزة لامرتين ، حتى اتيج اخيراً لهري ، بورودو فاطمته للتاريخ بعد ان اخذه عن وثائق ومعلومات ثابتة ، هي حياة الاب جيرامب ومفكرات سياحته في الشرق ^(١) .

المرجوع الى فرنده

رأينا ان لامرتين ، اذ كان على طريق بيروت راجعاً من دمشق ، استلم الرسائل التي تبشره بانتخابه عضواً لمجلس النواب عن مقاطعة بيرغ (Bergue) . ويظهر ان هذه البشرى لم تقض في قلبه كثيراً من السرور ، لان هذا القلب الكبير لم يعد يطيق حمل المنازعات السياسية . لكنه لم يرَ بداً من التلبية ، عرفاناً لجليل ناخبه الذين وضعوا رقبتهم فيه ، ثم احياء لذكر والده الذي كان من رجال السياسة في البلاط الملكي ^(٢) ولذلك نفسه يتعهد بعد قراءة هذا النبأ ، قائلاً : « ساذهب ا ولكن كم اتنى ان تبعد عني هذه الكاس ! ... » ^(٣) وفي ٢٥ نيسان من سنة ١٨٣٣ ، بعد ان سلم جثمان ابنته المحنط الى ربان

(١) Voyageurs d'Orient. [Revue des deux Mondes. T. XXVIII, p. 66]

(٢) صرَّح لامرتين في مذكراته جذبين البين (١١٦:٢) ولعل لذلك سبباً ثالثاً لم يرد ان يصرَّح به ، وهو فقره الى مورد مالي ، غير الادب ، يعيش منه .

(٣) الرحلة ١١٦:٢

المركب (L'Alceste) ليذهب به تَوّاً الى فرنسة ، وقبل ارض القرعة التي ماتت فيها بالأياها بدموعه ، غادر بيروت بين دموع الاصدقاء والمعارف الكثيرين الذين جمعتهم وايامهم هذه الرحلة . وتوجهت امرأته مع بعض الرفاق الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة ، علما تجد فيها بعض الدواء لجرح قلبها المنيق . وكان المرعد ان ينتظر لامرتين قرينته في يافا حيث التقيتا بعد بضعة ايام .

وحينئذ القى هذا الشاعر العظيم النظرة الاخيرة على جبال لبنان وسهل سورية وشواطئ فينيقية وفلسطين ، على البلاد التي احبها حباً صادقاً ، واستفرغ كل ما في بيانه الشعري الرقيق من عبارات المديح والاعجاب في سبيل وصفها . ثم غاب منظرها من امام عينيه ، غائصاً في الحضم الواسع ، بيد ان صورتها بقيت مرسومة على لوحة قلبه ، بما تحمله من التذكريات السارة والاليسية .

وكان في نيته ان يرحل بمصر . لكن المواصف عاكسته فحملت مركبه الى جزيرة قبرس . فاتم طريقه الى القسطنطينية ، حيث قضى شهرين ، توجه بعدها الى فرنسة في طريق البر .

٣

كتاب الرحلة الى الشرق

« لا احب اني ساكتب وصف رحلتي . وكل مرادي ان اجد تأثيرات خاصة ، لا تطلق بواي ! »

هذا ما كتب لامرتين في تموز سنة ١٨٣٢ . ولكن لم يمض شهر نيسان من سنة ١٨٣٥ حتى تداولت الايدي كتاباً في اربعة مجلدات ، عنوانه : « رحلة الى الشرق » *Voyage en Orient* بقلم الفونس دي لامرتين .

ذلك ان شاعرتا ، بعد رجوعه الى فرنسة ، لم تعد حاته المالية كثيرة الاتساع ؛ وكان من جهة اخرى ، قد دخل في نفسه بعض الآراء الفلسفية والسياسية والاجتماعية الجديدة . فلهذين السببين ، عزم على طبع مذكراته : ليحصل من ريعها ما يفي بمصاريفه ؛ وينشر آراءه بين معاصريه .

ولقد نال الكتاب نجاحاً عظيماً وتواتت طبعاته مراراً ؛ اذ كان اول كتب

لامرتين الثرية ، واكثرها قيمة ، دون شك ، لبراعة الفن في اوصافه ، ولطرافه المسائل الاجتماعية التي تعرض لها وحاول حلها . ثم لانه كتاب من الشرق ، والشرق ، اذ ذاك ، مالى البصائر والشواعر . ولكن كثيراً من القراء لم يستطيعوا ، مع ما رأوا في الكتاب من الجمال في الانشاء ، ان يخفوا تعجبهم من بعض آراء المؤلف .

والحق انك لا تستطيع ان تقرأ هذه المذكرات المملوءة بالصور البيانية ، دون ان تشعر بالتضادات الكثيرة التي يصب شرحها لاول وهلة . ولعل من المفيد ان نأخذ مثلاً حياً على ذلك :

تراه حيناً ينكر ان الاتراك اضهدوا المسيحيين او عارضوهم في تشييد كنائسهم واقامة صلواتهم . ثم لا يلبث ، بعد صفحات ، ان يفيض في وصف ما يعانيه السوريون من جور الاتراك وتخريبهم للكنائس ، او جملها جوامع .

ولقد رأيت ، في صفحة واحدة ، يذمّ رهبان دير تزل فيه واستقبل احسن استقبال ، فيشكو من تباعضهم وتكاسلهم ونوع معيشتهم ؛ ثم ، على مسافة بعض اطر ، تنغير افكاره ، فيجزل مدحهم ، شاكراً محبتهم وتقانيهم وتقواهم ، وتركهم اوطانهم في اوربة ليعيشوا بالكد والتعب في بلاد مقفرة كصحراء فلسطين .

والسر في ذلك ، على ما يراه الخبراء ، راجع الى سببين : الاول ان المؤلف اراد ان يضحّم حجم كتابه ، فحشاه بكل فكر مرّ بخاطره دون ان يحصه ويردّه الى حقيقته ، محكّماً فيه ، عوض العقل ، مخيلته القوية .

والثاني اضطراب افكاره وعدم ثبوته على رأي واحد : جاء لامرتين الى الشرق تحت تأثير عاطفة دينية محضة : فاننا نراه ، اذ تظهر الناصرة امام عينه ، « يقفز بغتة عن ظهر حصانه ، وبدافع غريزي ، يكاد يكون غير اختياري ، يدكع على التراب لا يبتس الا بهذه الالفاظ « الكلمة صار جسداً وحلّ فينا » ، ثم يعفر مجيئه الارض التي انبتت المسيح ، بالأياها

بدموع التوبة ، والمحبة ، والرجاء .^(١)

بهذه العواطف غمس قلمه ، اذ ابتدأ -بتدوين مفكراته اليومية ، « احياناً عند الظهيرة ، ساعة القيلولة ، في ظل النخيل ، او تحت اعمدة الاطلال في الصحراء ؛ وغالباً عند المساء ، على نور سراج زيتي ، في خيمة تضربها الرياح والامطار ؛ وكثيراً ما اضاع اوراقه ؛ واكثر من ذلك ما مزقتها بنات آوى ، او بللتها الامطار وامواج البحر . »^(٢)

لكنه لم ينشر هذه المفكرات على علائها كما ظهر اليوم للنقاد من مقابلة كتاب « الرحلة » المطبوع بمخطوطات لامرتين الاولى المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس . فكانت النتيجة ، كما اعلنها السيد كونييه ، انه « من الواجب ان نشك في صدق لامرتين عند ما يقدم لنا « تأثراته وخواطره مدة رحلته الى الشرق »^(٣) . فالحقيقة ان الكتاب يحتوي آراء لامرتين بعد رحلة الى الشرق .^(٤) فلا عجب ان يكون المؤلف بعد رجوعه الى اوربة واضطراب عقيدته السياسية والفلسفية والدينية من جديد ، حذف كثيراً من مذكراته ، وزاد عليها كثيراً ، مازجاً المفيد باللفظ ، كما يقول المثل اللاتيني . واذا كان اللذيذ هنا ما نثره في كتابه من الاساطير والفكاهات والقصائد ، فيجب ان نفهم بالمفيد ما وجده من آرائه الاجتماعية خليقاً بالانتشار ، بل ضرورياً لتسيير الكون كما ينبغي . لهذه الاسباب جاءت مذكرات الرحلة كثيرة الاضطراب غزيرة التضاد ، كما حير عقول القراء . كما قلنا .

هذا من جهة المعاني . اما في البني ، فقد تظاهر لامرتين بترك المذكرات على علائها . وهكذا فاننا نرى ، الى جانب الفصول الطويلة والابحاث المستفيضة ، صفحات لا تحوي سوى سلسلة جمل قصيرة متقطعة كرزوس اقلام كتبت على عجلة . واليك مثلاً منها :

III : المقدمة :

(١) الرحلة : ١٦٦

(٢) عنوان الكتاب في الصفحة الاولى من كل مجلد : *α. Souvenirs, impressions,*

Pensées et Paysages, pendant un voyage en Orient, 1832-1833 »

(٣) راجع : *J. De Cognets : Vie intérieure de Lamartine. (1911) p. 222.*

« سافرنا في الليل... فجر جميل بين احراج الزيتون... - سمات لطيفة -... ليلة هادئة بين جزر البكلاد - ركذ الهواء في منتصف النهار - البحر هادئ حتى المساء... »
 رأينا في حياة لامرتين انه قضى حصة من عمره في الاسفار ، وتقتل في اجمل بلدان اوربة كإيطالية وسويسرة وجبال الالب والبيرنه ، حتى اصبح حب الطبيعة وفهم جمالها ملكة غريزية فيه ، الامر الذي ساعده كثيراً في تدوين مذكراته ، اذ سهل عليه وصف المشاهد الطبيعية . وانك ترى كثيراً من اوصاف الرحلة شعراً رقيقاً لا ينقصه الا الوزن والقافية .

بقي ان نقول كلمة في عاطفة لامرتين نحو الشرق ، ونحو سورية ولبنان بالخصوص . فهو لم يدخر من اساليب البيان شيئاً في مديح بلادنا وسكانها ؛ حتى لتتساءل عند قراءة الكثير من ذلك : أصادق لامرتين في ما يقول ؟ ايعبر عن عاطفة قلبية ام يستولي عليه الخيال فيتغنى باكثر مما يشعر ؟ انه يجد ان « ضراحي طرابلس فتاة » ؛ ويضطرب « بمنظر لبنان التي ليس اجمل منها ؛ وبضيافة اصل لبنان التي لم يَر مثلاً في حياته » ويمدح النساء السوريات « بمجاهلن غير القابل الوصف »... وامثال ذلك كثيرة في الكتاب .

فهل لامرتين مخلص في كل ذلك ؟ واذا كان مخلصاً ، فهل اخلاصه صادر عن عاطفة واغراض وقتية ، ام عن عقل يؤمن ما يقول بعبارة التروي والحكمة ؟ هذه اسئلة لا بد من ان تتعرض المطالع .

لكن بها يكن من الامر ، فان الكتاب ينقسم في مجله الى قسمين : قسم يحتوي المسائل السياسية والفلسفية ، والقضايا الاجتماعية الخاصة باهل القرن الماضي ؛ وهذا القسم يكاد يحجم عليه عنكبوت النسيان ، لولابعض الاختصاصيين وطالبي الوثائق التاريخية . وقسم يضم باقية من الاوصاف الفنية البديعة لـبكل العالم التي مر فيها لامرتين ؛ وهذا القسم هو الذي يهنا ، نحن الشرقيين خاصة ؛ اذ نجد فيه شيئاً كثيراً عن الحياة في سورية ولبنان في القرن التاسع عشر ، ونحس بروح ذلك الشاعر الكبير الذي احب بلادنا حباً جماً وترك آثار هذا الحب في « مذكرات رحله » . وسنختار في الجزء القادم امثلة من هذا القسم في وصف لبنان ، والحياة اللبنانية كما عرفها الشاعر . (له صلة)